ساحر الشمال

أو

سير ولتر سكوت [1]

للأستاذ عبد الرازق حميدة

قدمنا فيما سبق من حديث أن « سكوت » بدأ حياته الأدبية شاعرا مجيدا ، وأنه لقى نجاحا عظيما فى الشطر الأول من حياته كناظم يؤلف الدرر ، وأن الجمهور كان يتلقى قصائده أحسن لقاء . وقلنا إن « سكوت » كان ينحو فى شعره ناحية رومانتيكية خاصة ، تعنى كل العناية بالأبطال السابقين وبتصوير مشاهد الفروسية ، ورجالها ، وبالحب البرىء ، بين نبيل من هؤلاء الأبطال ، وغادة من الغيد الحسان اللائى تزهى بهن قصص البطولة .

وقد ربح سكوت مالا وشهرة من وراء الشعر ، وكسب مجداً وثروة من آثار مانشره من قصائد غر ، مازالت مضرب الأمثال فى القوة والحلاوة ، وقد حاول النثر كما قدمنا ، وابتدأ روايته « ويفرلى » Waverly . ولكنه عرضها على صديق قبل أن تكمل . فنصح له أن ينصرف عن هذا الضرب من الأدب الذى لا يلائم استعداده ففعل « سكوت » . واستمر فى خطته الأولى ، حتى ظهر فى سماء الشعر نجم متلألئ صرف الأبصار تلقاءه ، وخسف « سكوت » ذلك هو لورد بيرون « Lord Byron » فرجع « سكوت » إلى قصته التى بدأها

(١) كنت أفضل أن أكتب هذا الاسم « سكط » « أو سكت » (بتسكين الاول وضم الثانى وتشديد الثالث) ليكون قريبا جدا من نطقه فى الانجليزية . ولكن من كتبوا عنه قبلى آثروا مجاراة فى اللغة العربية كما هو مكتوب فى العنوان ، فتبعت طريقتهم لانها شائعة ، لا لسبب آخر .

منذ أعوام ، وأتمها فى أسابيع قليلة ثم نشرها فلقيت أعظم حظوة ، وتطلع الناس إلى معرفة كاتبها ؛ إذ أنها نشرت غير منسوبة ، ولما ينسوا من معرفته أطلقوا عليه « العظيم المجهول » فشجعه ذلك على المثابرة والاسترسال ، وانصرف قلبه إلى القصص النثرى الذى يدور حول الفروسية التاريخية وحكايات الأبطال. وبرز قلمه قويا من أول يوم ، يستهوى القارىء ويأسر لبه . وتتابعت رواياته سريعا بعد « ويفرلى » وكثر إنتاجه كثرة تحمل على الشك فى أن يكون منشئها واحدا ، أو تدعو إلى الاعتقاد أنه كان عبقريا موهوبا ، وساعدته أرباحه من تلك القصص على أن يعيش عيشة النبلاء فى بيته ، وأن يجعله مثابة لأصدقائه ، يتلقاهم فيه على الرحب والسعة ، وينزلهم فيه منزلا كريما .

وقد أنتج فى الشطر الثانى من حياته روايات خالدة ، وقصصا فى البطولة ، مازالت تتمتع بمركز ممتاز بين أحسن القصص الرومانتيكية ، ومازال يتجدد شوق القراء إلى الكثير منها ، ويتمتعون به كمتعتهم بأى قصة جديدة لكاتب حديث .

أما خير هذه القصص على الإطلاق فهى .

ايفانهو Ivanhoe (١)

وهى رواية تاريخية بين فيها (سكوت) التنافس بين السكسون سكان انجلترا الأصليين ، والنورمانديين الذين جاءوا إلى انجلترا فاتحين قبل تاريخ هذه القصة بما يقرب من قرن من الزمان .

كتبها سكوت سنة ١٨٢٠ . وبدأها بوصف الغابة الجميلة التى تغطى بطون الأودية ، وسفوح الجبال بين شيفلد ودونكاستر فى المقاطعة التى تروبها مياه نهر (دن) River Don

(١) كانت هذه الرواية مقررة على تلامذة المدارس الثانوية فى سنة ١٩٣٦ وترجمت إلى العربية ترجمة مدرسية . وقد ترجم لسكوت غيرها رواية أخرى هى « الطلاسم » ترجمها أحد إخواننا الأفاضل بمدرسة فاروق الأول الثانوية .

كان ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا غائبا عن بلاده فى الحرب الصليبية الثالثة . وكان أخوه الأمير (جن) يحكم البلاد نيابة عنه حتى يعود من فلسطين، ولكنه كان يرغب فى اغتصاب العرش لنفسه ، وطرد أخيه ، ولم يكن الامتزاج قد تم بين الفاتحين من النرمانديين وبين السكسون سكان البلاد .

وفى مكان جميل من الغابة التقى أحد الرعاة عند سدريك Cedric — أحد رؤساء الاقطاع فى مقاطعة روذر وود Rother Wood — مع مضحكه وامبا « Wamba » وقد ضاق الراعى ذرعا بخنازيره التى لا تستجيب له دعاء ، ورجا (وامبا) أن يساعده ، فاستشار رجليه ثم رنض ، حتى خوفه الراعى من العاصفة والمطر فاستجاب المضحك لندائه ، وساعده على جمع الغنم فى صعيد واحد .

وقد سمع الراعى وقع أقدام خيل قادمة ، وأخبر المضحك بذلك . وبعد زمن ظهر لهما الفرسان ثم اقتربوا رويدا رويدا حتى وقفوا عليهما ، وكان يتقدم جماعة الفرسان فارسان عليهما سيما النبل والوقار ، وكان أحدهما قد تبدو عليه آثار النعمة والرفاهية ، وكان الثانى فارسا من الذين وهبوا أنفسهم للحرب فى سبيل الدين ، واستخلاص بيت المقدس من المسلمين . وعلى الرغم من تظاهر أمثال هذا الفارس بالتدين فقد كانوا سيئى السمعة مشهورين بالغلظة والشح ، وكان مظهر هذا الفارس يقذف الرعب فى قلب كل غريب ، وكان مع هذين الفارسين آخرون بعضهم شرقى الزى ، وبعضهم غربى الوجه واللسان .

وسأل القسيس عن الطريق إلى حصن سدريك Cedric ؛ أما الراعى فقد أبى أن يجيب عن هذا السؤال ، ولم يتأثر بتهديد أو وعيد ، وأما المضحك فقد شغل بهذا المنظر — منظر الركب — عن الرد ، حتى استهواه القسيس بالرشوة، فدلهم على طريق يضللهم ولا يهديهم ، فساروا فيه يتحدثون ، وفيه أخبرهم القسيس أن سدريك سريع الغضب ، وحذرهم أن يعرضوا للسيدة رونا Lady Rowena بسوء لأن سدريك لا يحتمل ذلك ، وأنه قد طرد ابنه إيفانهو (Wilfridivanhoe)

من منزله بسبب ماأظهره من تودد إلى ليدى رونا . واستمر الركب سائرا حتى أتوا إلى مفرق طرق فلقوا رجلا نائما فأيقظوه ، وسألوه عن الطريق إلى بيت سدريك ، فطلب منهم أن يتبعوه ، وانطلق أمامهم فى الغابة حتى وصلوا إلى الحصن ، ونفخوا فى أبواقهم ، فأفاق سدريك من أفكار كانت تدور برأسه؛ لتأخر الراعى والمضحك وغياب ابنه إيفانهو فى فلسطين ، وتأخر ليدى رونا خارج البيت ، ولم يمنعه من رد الضيوف إلا خوفه من أن يقال عنه إنه بخيل .

استقبل سدريك ضيوفه وهو جالس إلى مائدة العشاء ، ودخلت رونا بعد فترة ، فصوب إليها الفارس سهام نظره ، فاستحيت وغطت وجهها ، واسترعى ذلك انتباه سدريك فتميز غيظا وقال للقسيس : إن الخدود السكونية لم تخلق لمثل هـــذه النظرات المريبة ، فاعتذر الفارس وتمنى أن تكون ليدى رونا أكثر عطفا وائتناسا فى الاحتفال الذى يتلو العشاء . وقطع حديثه خادم دخل يؤذن بضيف جديد يطلب قرى ، وهمس فى أذن سيده أنه يهودى؛ فأذن له السيد ودخل دخولا غير محمود ، ولم يظفر بكثير من الإكرام ولا قليل . وتحدث القوم عن فلسطين وما أبداه الشجعان الإنجليز من إقدام وثبات فى ميادين القتال . وكان المتحدث عندئذ « حاجا » قد جاء حديثا من تلك الديار فمنحه سدريك خاتما من الذهب لما أنبأ به من أخبار الأبطال الإنجليز، وطلب منه أن يذكر له أسماءهم،فكانوا من السكان الأصليين لا من النورمانديين الفاتحين . وكان ولفرد إيفانهو Ivanhoe سادس ستة أبلوا بلاء حسنا فى الأراضى المقدسة ، وتمنى له « الحاج » عودا حميدا إلى انجلترا ، غير أن فارسا آخر تمنى أن يراه قريبا ليقابله فى مبارزة ، وتمنت ليدى رونا عودته سالما لتنعم بلقائه ، وخشى القسيس أن يحتدم الجدل. وانفض الجمع ؛ والتقوا بعد العشاء فى الردهة، ومر الفارس يوزع نظراته هنا وهناك ، وكان ينظر إلى اليهودى نظرا شذرا ، وأخيرا قال له : أظنك سائرا فى الطريق الذى سنسيرفيه . فطأطأ اليهودى رأسه

وأجاب بنعم ، ثم أجاب بالنفى عن سؤال خاص بما معه من النقود ، مدعيا أنه لا يملك منها شيئا .

وبعد أن انتصف الليل ذهبوا إلى مضاجعهم ؛ وبينما كان الحاج فى طريقه إلى حجرة نومه قابلته إحدى وصيفات رونا وأخبرته أن سيدتها تود أن تتحدث معه ، فلبى دعوتها وذهب إلى حجرتها وانصرفت الخادم ، فسألته رونا عن مصير إيفانهو ، فأخبرها أنه لا يعلم أكثر مما أفضى به عنه ، ودعا له بخير ، وأمنت رونا على دعائه ، وكانت تود عودته ليفوز بالجائزة فى المبارزة التى أقيمت ليلتئذ .

خرج (الحاج) من عندها إلى حجرة نومه المجاورة لحجرة اليهودى ، ونام على فراش خشن غليظ ، وفى الصباح استيقظ مبكرا ، ودخل غرفة نوم اليهودى فوجده مجهودا ، يتكلم وهو نائم ، ويقول : لن أعطيك شيئا ولو قطعت أوصالى ؛ ليس معى نقود ! فأيقظه الحاج ، وأخبره أن مكيدة تدبر لاغتصاب ماله فى الطريق ، وأمره أن يغادر المنزل فى الحال ، وساعده على الفرار من الباب الخلفى ، وخرج معه ليريه الطريق ، حتى أبعده عن سلطان الفارس ، ثم ودعه ، فوعده اليهودى أن يعطيه فرسا وعدة حرب على أن يردها ، ناسيا أن درع الفارس المهزوم فى مبارزة هى للغالب ، فلما ذُكِّر بذلك اضطرب ، ولكن إحساسا شريفا تغلب على حبه للمال ، فصرح ثانيا أنه لا يهتم ، ولكنه نصح للحاج بالأناة والحذر ، والمحافظة على شبابه ، ثم افترقا .

أول يوم للمبارزة فى آشبى Ashby

وفى آشبى « Ashby » كانت الخيام مضروبة للمتبارزين ، وكانت فى صفين بينهما عرش تحيط به أعلام رسمت عليها قلوب دامية ، وسهام مخضبة ، وأقواس مشدودة ، وقد أعد ذلك العرش لتجلس عليه « ملكة الجمال والحب » ولكن من هى السعيدة التى ستحظى بهذا اللقب ؟

تجمع خلق كثير من كل طبقة فى يوم المبارزة ، ليشهدوها ، وحضر اليهودى إسحق ، وابنته الجميلة ريبكا «Rebecca» وفى الوقت الموعود جاء الأمير « جن » وحاشيته ، وهم فى أفخم الملابس . وعندما رأى الأمير ريبكا فتنه جمالها وسحره ، فاختارها لتكون ملكة توزع الجوائز على الفائزين ، فاعترض القسيس محتجا بأن ليدى رونا السكسونية أجمل منها ، وأحق باعتلاء هذا العرش ، ولكن الأمير « جن » لم يصغ إليه ، فثارت ثائرة الجمع ، فخضع الأمير لحكمهم ، ونحى ريبكا ، وتم الاتفاق على أن يكون للفائز الحق فى اختيار الملكة ، ودارت المبارزة ، وانتصر اللوردات النورمانديون ، فثار سدريك Cedric ، ولكنه صبر حتى جاء « الفارس الشريد » المعروف عند الحاضرين باسم « Homeless Kmight » فبارزهم وانتصر عليهم ، ولم يشأ أن يعرف نفسه أو يكشف عن وجهه غطاءه ، فظن الأمير أنه أخوه ريتشارد قلب الأسد ، ولكنه كظم غيظه ، وأخفى شعوره ، وقدم إليه هديته ، وأمره أن يختار الملكة التى تجلس على عرش « الحب والجمال » فاختار ليدى رونا .

وذهب « الفارس الشريد » بعد النصر إلى خيمته ، ودخل عليه خمسة من الخدم مع كل منهم هدية هى درع وجواد مهداة إليه من سادتهم ، ففضل أن يأخذ هداياه نقودا من أربعة ، وأما الخادم الخامس فقد رده قائلا : إنه مازال بينى وبين سيدك ثأر ، والحكم بيننا غدا . ثم أرسل الراعى بقطع من ذهب إلى اليهودى رداً لجميله . فتسلم اليهودى النقود عدا ، والراعى يتطلع إلى واحدة منها ولعابه يسيل ، واكتفى اليهودى بشكره قولا لافعلا . وتركه يخرج من بيته ، أما ريبكا فتدلحقت به وردت إليه ماكان يحمله من ذهب مضاعفا ، وعينت له نصيبا كبيرا فيه ، ولسيده « الفارس الشريد » الباقى ، ورجته كذلك أن يغفر لوالدها إهماله ، فقد كان يود المزاح معه.

بينما كان الراعى فى طريقه إلى سيده سطا عليه لصوص ملثمون ، وطلبوا

أن يسلمهم مامعه ، فأخبرهم بقصة النقود ، وأنها مرسلة هدية إلى الفارس الشريد، ورأى قائد اللصوص أن يترك نصيب الفارس يذهب إليه ويأخذ الباقى ، فطار لب الراعى ، وغاب صوابه ، واستجمع قوته وأوسع القائد ضربا ، ولكنه لم يستطع الفرار، فقد تكاثرت عليه الأيدى وعذبته ، ومع هذا فقد أعجب به قائد اللصوص ، وقرر أن ينازله واحد من أعوانه ، فانتصر الراعى ، وكان جزاؤه من قطاع الطريق هؤلاء ، أن يذهبوا به إلى قرب خيمة سيده ، وأوصوه أن يبقى الأمر سرا مكتوما ، وإلا ناله من أذاهم ، فوعدهم بالكتمان . ولكنه ما كاد يرى سيده (الفارس الشريد) حتى أفضى إليه بما حدث ، فأعجب الفارس بنبل ربيكا ونبل قطاع الطريق .

اليوم الثانى فى آشبى :

فى اليوم الثانى من المبارزة حمى النزال واستحر القتل[1] ، وانتهى بانتصار الفارس ، وتقدم إلى عرش ملكة الجمال ليتسلم جوائزه فأبى الحكام عليه أن يتقدم إلا إذا كشف رأسه فكشفه ، فإذا هو مجروح ، وإذا حربة قد اندقت فى صدره فجرحته جرحا بليغا ، وإذا هو إيفانهو بن سدريك وحبيب رونا .

وكان لابد من أن يرث أرض المغلوبين وديارهم وأموالهم ، غير أن الملك نفس عليه الانتصار ، وأراد أن يحول بينه وبين رونا ، ففكر فى حرمانه هذه الثمرات ، وفكر كذلك فى تزويج رونا من واحد من الرماة الأبطال .

سقط إيفانهو مغشيا عليه من الجراح ، ووكل والده من يحمله إلى حصنه فى روذروود « Rotherwood » بعد انصراف الناس ، ولكنه

(١) فى مثل هذه المواطن يصور سكوت أماكن القتال أبدع تصوير ، ويصف الفرسان وجيادهم وملابسهم وحركاتهم ، وسكناتهم ، والمشاهدين وانفعالاتهم وسيماهم وما تدل عليه نظراتهم ، ويكون دقيقا فى وصفه حتى لتكاد ترى مكان الكلمات والجمل صورا ورسوما ناطقة .

اختفى ؛ إذ حملته « ريبكا » فى عجلة ، وسارت به فى طريقها إلى بيت أبيها وظلت سائرة حتى التقت فى الغابة بمن خوفها قطاع الطريق الذين ينتظرون مقدمها، ويسلبونها مامعها من نقود وحلى . فسمعت لكلام محدثها وانتظرت حتى مر بها ركب آخر فيه سدريك أبو إيفانهو وفيه ليدى (رونا) فطلبت منهم أن يصحبوها فى طريقها وأن يؤنسوها من أجل شخص عزيز على السيد (سدريك) وليدى (رونا) كما هو عزيز عليها . فرضى الركب وساروا معاً .

وبعد ثلاث ساعات التقوا بعصابة من قطاع الطريق نرماندية ، فأسرتهم وحبستهم ، وكلفتهم فى محبسهم أن يعمل كل منهم عملا ، وكان على ريبكا أن تغزل وهى فى أسرها . وكان آسرها هو (فرن دبيف) Front-de-Boeuf . وسمع الراعى والمضحك بما حدث لسيدهم فأرسلا خطابا إلى الآسرين يطلبان فيه إطلاق سراح الأسرى جميعا . فكان الرد عليهما أن هؤلاء سيقتلون ، وأن على مرسلى الخطاب أن يبعثا قسيسا يشهد الموت ويستغفر للمحكوم عليهم . فاهتديا إلى حيلة ، وذهب المضحك فى لباس قسيس ، وادعى عند وصوله إلى الحصن أنه قسيس تائه ، واستبطأ الآسرون مجىء قسيس آخر ، فرضوا بهذا ليقوم بالاستغفار والشهادة على التوبة . وكانت فرصة سعيدة انتهزها المضحك المتنكر . ودخل على سدريك ، وطلب منه أن يبدل ثيابه بثيابه، ويخرج ليهرب، وعلمه كلمات لاتينية يتمتم بها فتكون جواز مرور ، يقتحم به كل عقبة . ولكن صادف أن التقى سدريك من أول أمره بمن يعرف اللاتينية فاضطرب ، وكادت تنكشف حيلته لولا اختفاؤه من محدثه فى جانب مظلم من الحصن . وأخيرا نجا ، وذهب إلى مقاطعته ، وجمع جموعه ، وهجم المنقذون على الحصن ، ونجا إيفانهو بعد احتراق الحصن . أما ريبكا فقد فر بها أحد الآسرين : وهو (بواجلبير) Bois-quilbert

خرج اليهودى إسحق فى طلب ابنته ريبكا . فالتقى فى جولانه برهبان فى دير ،

واضطر إلى الإفضاء إليهم بما هو فيه من ضيق ومايسعى إليه ليسترد ابنته . وأطلعهم على خطاب توصية كان يحمله معه إلى (بواجلبير) ليطلق سراح (ريبكا) فلم يقتنع الرهبان بشيء مما قال ، واتهموا ابنته بالسحر، وقرروا موتها حرقا بعد محاكمة صورية . ولكن عادات تلك الأيام كانت تبيح لمثل ريبكا أن تقرر مصيرها بدعوة فارس تختاره ليبارز فارسا آخر يكون راضيا عن الحكم، والحكم الأخير لمن ينتصر من الفارسين .

أما إيفانهو فقد ذهب بعد خروجه من الحصن إلى دير سان بوتلف «Saint Botolph» ثم غادره مع الراعي ، وسارا حتى أدركا (الفارس الأسود) الذى ساعد إيفانهو على الانتصار فى اليوم الثانى من المبارزة ، والذى كان فى أشد الحاجة إلى مساعدة إيفانهو عندما أدركه ، إذ هاجم هذا الفارس الأسود كمين وضعه له الأمير (جن) ، وانتصر الاثنان على الكمين . وبعد الانتصار أظهر الفارس الأسود شخصيته ، وكشف قناعه وعرفه الناس ملكهم القديم (ريتشارد قلب الأسد) . وأمر الملك أن تزول من الرءوس فكرة الخلاف بين النرمانديين والسكسونيين ، وأمر أن يسوّى بينهما فى كل شيء . ثم أمر سدريك أن يصفو لابنه إيفانهو، ففعل.

النجاة :

تلقى إيفانهو رسالة من (ريبكا) تخبره بما هى فيه من شدة وتستنجد بهمته وشجاعته، فذهب لنجدتها مع الراعي ، وأدركها وهى على وشك أن تلقى فى النار الموقدة لها ، والتى أعدت عدتها من قبل ، وأتى لها بالحطب الجزل ، ونصبت أعمدة فى وسطها لتشد إليها (ريبكا) ، وجيء بالقساوسة والأشهاد ، وقرئت دعوى الاتهام ، واجتمع كثير من الشامتين فى هذه اليهودية الجميلة الساحرة بجمالها لا بسحرها .

وانعقدت الألسنة ، وحبست الأنفاس ، ودار رأس (ريبكا) وتطلعت

عيناها ، فلم تجد من يرق لها ، أو يأخذ بنا صرها ، فأسلمت أمرها لله رب إبراهيم وموسى ، وتوكلت عليه . ثم استمهلت ، فأجلها القاضي فترة ، لاح بعدها على البعد فارس ينهب الأرض بجواده نهبا ، وقد ولى وجهه شطر هذا المشهد الرهيب ، ثم وقف عندهم ، وأخبرهم أنه قدم لنصرة (ريبكا) وأنه هو (إيفانهو) فبرز له آسرها بواجلبير Bois Guilbert واقتتل الفارسان ، ودارت الدائرة على الآسر ، وقضى الله لهذه الحسناء (ريبكا) أن تنجو .

وقبل أن ينصرف الناس جاء الملك وجنوده ، وأمر بالقبض على أعدائه والقصاص منهم . ثم تزوج إيفانهو من ليدى (رونا) وقدمت (ريبكا) إليه هدية قيمة حقا ، أما هي فقد وهبت نفسها لعمل البر ، ومواساة البائسين ومساعدة ذوى الحاجات ؛ شكرا لله على خلاصها من النار .

نقد عام :

ماتقدم هو خلاصة « إيفانهو » ، أحسن رواية نثرية أخرجها « سكوت » للناس ، وأصدقها تمثيلا لروحه الغالبة على رواياته ، وقد تخير لها وقتا اشتهرت فيه انجلترا بدفاعها عن بيت المقدس ، ذلك هو زمن الحروب الصليبية الثالثة ، ولكنه وصف فيها حياة الفرسان فى العصور الوسطى ، وقدمهم لنا كما كانوا يعيشون : معاقلهم ظهور خيلهم ، والبطولة غايتهم ، والمجد والشهرة رائدهم ، والغارات أو الحروب أو قطع الطريق كلها ميادين تظهر فيها الشجاعة والمهارة فى الكر والفر ، والإفلات والإقدام ، فلا بأس من أن يحترف الفارس أيها شاء . وصور اهتمام الناس كبيرهم وصغيرهم بحفلات المبارزة . وحضور الملوك والأمراء فيها يدل على ذلك دلالة قوية .

ولابد من أن تزين تلك الحفلات واحدة من الجنس اللطيف ، لتعتلى (عرش الجمال والحب) وتكلل جبين الظافر بالغار والريحان ، ولابد أن يكون الفارس الأول من أولى النجدة والمروءة ، نبيل الشعور رقيق الإحساس ، كما

يصوره (سكوت) فى شخص (إيفانهو) .

أما قدرة (سكوت) على سبك القصص ففيها كلام ، فرواياته كانت تتوالى بسرعة مدهشة ، والفكرة التى تدور حولها الرواية كانت تتطور فى أثنائها بسرعة كذلك ، وكان لا يعنى كل العناية بنهاية القصة ، بل كان يختمها حيث يروق له ذلك ، ولا قاعدة له . وأما شخصيات الرواية فكانت تنتهى ضعيفة بعد أن بدأت قوية مثل (ريبكا) . ومع هذا فقد كان (سكوت) يفخر بتلك السرعة ويمجدها !

أما فضله على القصة التاريخية فهو فضل عظيم ، فقد أمدها بروح من عنده وخلع عليها قوة وحياة جعلت قارئها يشعر بفرق عظيم بينها وبين كتب التاريخ ، ولقد دعاه بعض الناقدين (شكسبير النثر) وذلك لما بينه وبين سيد الشعراء من شبه فى التحرر عند اختيار الشخصيات وترتيبها ووصفها . غير أنه تعوزه القدرة على التحليل النفسى الذى امتاز به عصر اليزابث ، وبخاصة شكسبير .

أما أسلوبه فهو قوى متين ، وأما وصفه فهو دقيق ، وفى كتابته جدة وشباب لا يذهب بهما تقادم العهد ، وقد كان (سكوت) عبقريا ، وكان رجل جد وعمل ، وكان مخلصا لصناعة الأدب إخلاص من وهب له حياته ونبوغه . فأصبح جديرا ببقاء اسمه على الزمن خالدا ، وسواء أأحسن إليه الناقدون أم أساءوا فقد ظلت رواياته محبوبة إلى الآن . ومازالت جزءا من الثروة الأدبية التى يفخر بها الميراث الأدبى الانجليزى .

عبد الرازق حميدة